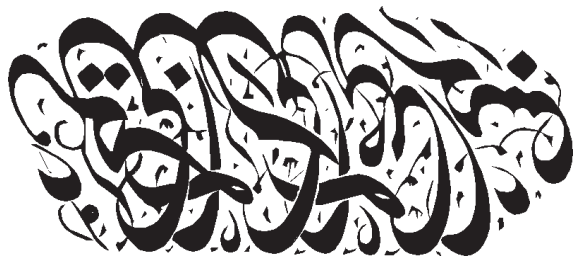


سلسلة دعوة التوحيد - ٣

رسالة

الجهاد
في الجهاد العدة

للجهاد في سبيل الله تعالى
بقلم: عبد القادر بن عبد العزيز





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }.

أما بعد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»¹.

وبعد: فقد ذكرت في الرسالة الثانية من هذه السلسلة. وهي رسالة (دعوة التوحيد)، أن توحيد الربوبية يقتضي إفراد الله تعالى وحده بالأمر — ومنه التشريع لخلق — كما يقتضي إفراده بالخلق، قال تعالى: { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ }²، وأن توحيد الألوهية يقتضي امتثال أمره سبحانه وشرعه الذي أرسل به رسله، وقد ختمهم سبحانه بمحمد صلى الله عليه وسلم فبعته بشريعة كاملة مفصلة وافية بما يُصْلِحُ الخلق في دنياهم وأخراهم إلى يوم القيامة، قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ }³، وقال تعالى: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ نَبِيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ }⁴، وقال تعالى: { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ }⁵، فلم يبق شيء إلا والله تعالى فيه حكم لا يحتاج معه الخلق إلى حكم غيره.

1 - متفق عليه.

2 - سورة الأعراف. الآية 54.

3 - سورة المائدة. الآية 3.

4 - سورة النحل. الآية 89.

5 - سورة الشورى الآية 10.

فمن عدلَ عن حكم الله تعالى إلى حكم غيره فقد اتخذ لها مع الله، إذ لم يُفرد الله تعالى بالأمر والحكم كما قضى سبحانه بقوله: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} ¹. ومن أسعج هذا الحق الإلهي الخالص — وهو حق التشريع — على أحد من الخلق، فقد جعل لله عدلاً ونظيراً، وهذا لاشك في كفره لقوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} ². أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً في صفاته وأفعاله ومنها التشريع.

ومن هذا تدرك يا أخي المسلم أن النظم البشرية المخترعة من قوانين وضعية وديمقراطية واشتراكية وشيوعية وغيرها من الضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان هي كلها كفر بواح، وتدرك أيضاً أن حكم الطواغيت القائم — بكثير من بلدان المسلمين — على هذه النظم هو عدوان صارخ على ألوهية الله تعالى لخلقه في هذه الأرض، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} ³، أي المعبود في السماء والأرض، ذلك العدو لن الذي يوجب على المسلمين أن يَهْبُوا ليدفعوا عن ألوهية ربهم سبحانه، وهذا هو معنى نصرته الله تعالى المذكورة في قوله سبحانه: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} ⁴، ويُطْلَقُ على هذا شرعاً الجهاد في سبيل الله تعالى.

إن الله تعالى غني عن خلقه، وقال سبحانه: [يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني] ⁵. وهو سبحانه إنما ابتلانا في هذه الدنيا بالكافرين فتنة واختباراً لنا، وأمرنا بمجاهدتهم ودفعهم، ليعلم سبحانه صادق الإيمان الذي سيمتثل أمره بالجهاد من كاذب الإيمان القاعد عن الجهاد، قال تعالى {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} ⁶، وقال سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} ⁷. مع قدرته سبحانه — التي لا يشك فيها — على إهلاك الكافرين ب “كن فيكون”، وإنما أراد سبحانه اختبار صدق إيماننا كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ⁸، وقال تعالى: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} ⁹.

وهنا لا بد أن يبرز لكل منا السؤال التالي: كيف يتأتى لنل القيام بواجب الجهاد ونحن في هذا الحال من الضعف والتفرق وقلة الحيلة؟ والجواب هو قوله تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

1 - سورة يوسف الآية:40.

2 - سورة الأنعام الآية:1.

3 - سورة الزخرف، الآية:84.

4 - سورة محمد، الآية:7.

5 - رواه مسلم عن أبي ذر مرفوعاً

6 - سورة الفرقان، الآية:20.

7 - سورة محمد، الآية:31.

8 - سورة محمد، الآية:4

9 - سورة العنكبوت، الآية:6

وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ¹، وقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}²، وقال ابن تيمية رحمه الله: (كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإنه مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب)³، فجواب السؤال السابق هو أن القيام بواجب الجهاد يتأتى بالإعداد، ذلك الإعداد الذي جعله الله تعالى فرقانا بين المؤمن والمنافق في قوله تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}⁴، وهذا الإعداد الواجب هو موضوع هذه الرسالة، رسالة (العمدة في إعداد العدة).

والإعداد للجهاد يبدأ بتكوين جماعة مسلمة كما قال صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسِ اللَّهِ أَمْرَنِي بِهِنَّ بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ»⁵، فطريق الجهاد يبدأ بتكوين جماعة من المؤمنين بوجوب الجهاد يدعون غيرهم للقيام بهذا الواجب {حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ}⁶، ويُعِدُّونَ لِلأَمْرِ عُدَّتَهُ عَلَى خَيْرِ وَجْهِهِ مُسْتَطَاعٌ. والإعداد للجهاد نوعان: مادي وإيماني:

أما الإعداد المادي، فهو إعداد في المحور الأفقي (محور الكم)، وله شقان، شق شرعي يتعلق بتكوين الجماعة والسياسة الشرعية المتبعة في إدارتها وعلاقات أفرادها، وشق فردي يتعلق بالفنون العسكرية. وأما الإعداد الإيماني، فهو إعداد في المحور الرأسي (محور الكيف)، ويتعلق بتثيئة هذه الجماعة على أصول شرعية مستقيمة وكيفية إعداد الفرد المجاهد إيمانياً.

وهذه الرسالة تتناول الشق الشرعي من الإعداد المادي وقسطاً كبيراً من الإعداد الإيماني. وقد واكب تصنيف هذه الرسالة أن طلب مني بعض الإخوة الأفاضل — الذين مارسوا التدريب العسكري والجهاد عملياً — أن أكتب لهم رسالة في بعض مسائل السياسة الشرعية المتعلقة بعلاقة الإخوة بعضهم ببعض في معسكرات التدريب وفي ساحات الجهاد، فعزمت بعد استشارة المولى جل شأنه على أن أصوغ هذه الرسالة بما يؤدي الغرضين: غرض بحث مسألة إعداد العدة وغرض كتابة رسالة إلى معسكرات التدريب الإسلامية، خاصة وأن التدريب جزء أساسي من الإعداد، وعرضت الغرض من خلال الثاني، فصغت الرسالة كرسالة موجهة إلى معسكرات التدريب ومن خلال ذلك تناولت مسألة إعداد العدة، باعتبار معسكر التدريب نموذجاً مصغراً للعمل الإسلامي الجماعي، وما ينطبق على هذا المعسكر من ضوابط شرعية ينطبق كذلك على أي مجتمع إسلامي. وقد اجتهدت في تقسيم هذه الرسالة بعد المقدمة إلى خمسة أبواب، وهي:

1 - سورة الأنفال: الآية: 46.

2 - سورة الأنفال: الآية: 60.

3 - مجموع الفتاوى: 259/28.

4 - سورة التوبة، الآية: 46.

5 - رواه أحمد عن الحارث الأشعري، والترمذي وصححه.

6 - سورة الأنفال، الآية: 65.

• الباب الأول: تذكيرة في الإخلاص والاحتساب.

• الباب الثاني: حكم التدريب العسكري للمسلمين.

• الباب الثالث: الإمارة.

• الباب الرابع: واجبات الأمير.

• الباب الخامس: واجبات الأعضاء.

وبالنظر إلى الموضوعات التي تحدثت فيها فقد جاءت هذه الرسالة مشتملة على:

أ - مسائل متعلقة بالسياسة الشرعية وهي صلب الرسالة، وتبحث في علاقة المسلم - أميراً كان أو مأموراً - بإخوانه في العمل الإسلامي.

ب - مسائل متعلقة بالجهاد، وليس الغرض منها استيعاب أحكام الجهاد الفقهية، ولكن أردت التنبيه على موقع الجهاد من هذا الدين وهو ما سميته (معالم أساسية في الجهاد)، مع بعض مسائل متفرقة من فقه الجهاد.

ج - مسائل متعلقة بضوابط فهم هذا الدين الحنيف، ضمنتها فيما سميته (أصول الاعتصام بالكتاب والسنة أو منهج أهل السنة والجماعة).

د - مسائل متعلقة بالآداب الإسلامية خاصة فيما يتعلق بعلاقة المسلم بإخوانه. وقد تبدو هذه المسائل غير مترابطة، ولكنها في الحقيقة تخدم هدفاً واحداً وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، دوافعه، الإعداد له، وغايته، وكيف نحافظ عليه من استغلال المنافقين وقطاع الطريق إلى الله تعالى. هذا وقد اضطررت للاستطراد في بعض المواضع للرد على بعض الشبهات المتعلقة بموضوعنا وركزت في هذا على الشبهات الصادرة من الوسط الإسلامي لكونها أخطر - في تقديري - على المسلمين من الشبهات الصادرة من غير المسلمين كالمستشرقين ونحوهم، هذا بالإضافة إلى قيام كتاب أفاضل بالرد على شبهات هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم.

كذلك فقد فصلت القول في مواضع إذ إنني أردت أن تكون هذه الرسالة ذات هدف تعليمي للإخوان المسلمين. وقد التزمت قدر الاستطاعة ألا أذكر قولاً أو حكماً إلا مقترناً بأدلته الشرعية من الكتاب والسنة. حتى يترسخ هذا المنهج في نفوس العاميين لنصرة دين الله تعالى خاصة وفي نفوس المسلمين عامة، وهو ألا يقبلوا قولاً من أحد إلا بدليل شرعي فنحن نتعبد بكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} ¹، والعصمة في قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ جعل الله تعالى الرد عند التنازع إليه سبحانه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فلا معصوم بعد ذلك، قال تعالى: {قَاتِن}

1 - سورة النساء، الآية: 13 - 14.

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ¹، فلا يُقْبَلُ قول في دين الله من أحد إلا إذا كان مستندا إلى نص كتاب أو سنة أو إجماع معتبر أو قياس صحيح، وذلك حتى لا يقع المسلم في حباطل قطاع الطرق إلى الله باسم الدعوة إلى الله عز وجل.

وكنت قد شرعت في إصدار سلسلة من الكتب باسم (سلسلة دعوة التوحيد) فجعلت هذه الرسالة إحدى حلقات هذه السلسلة، وحرري بها أن تكون كذلك، وكيف لا والجهاد إنما شُرِعَ لنشر دعوة التوحيد ولنصرتها وحمائتها، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...»²، وقال صلى الله عليه وسلم: « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يَعْبُدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ »³. فالتوحيد غاية والجهاد من وسائل تحقيقها.

وأنبه القارئ إلى أنني لجأت إلى تقطيع الحديث للاستدلال ببعضه في مواضع من هذه الرسالة أخذاً بمذهب من يميز ذلك من أهل العلم كالبخاري رحمه الله وغيره.

كما أنبه إلى أن الخط الذي يوضع للتنبيه على الكلام المهم، قد جعلته أعلى الكلام⁴ جريا على طريقة السلف وليس أسفل الكلام كما هي عادة الإفرنج.

وقد كتبت هذه الرسالة احتسابا عند الله تعالى، راجيا القبول والثواب، وجزى الله كل من ساهم في نشرها خيرا، آمين.

كتبها إيماننا واحتسابا
عبد القادر بن عبد العزيز.

1 - سورة النساء، الآية: 59.

2 - الحديث متفق عليه عن ابن عمر

3 - رواه أحمد وأبو داود عن ابن عمر

4 - في هذه النسخة كتب بخط غليظ.

الباب الأول:
تَذْكِرةٌ في الإخلاص
والاحتساب.

الباب الأول: تَذَكِيرَةٌ فِي الْإِحْلَاصِ وَالْإِحْتِسَابِ

الإخلاص هو قصد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة بالتبني عن كل ما دون الله، وتخليص القصد والنية من كل غرض دنيوي، فالإخلاص هو تخليص النية والعمل من شوائب الشرك. فعن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»¹.

وعن أبي موسى الأشعري ؓ أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقتل ليذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه؟ — وفي رواية يقاتل شجاعة، ويقا تل حمية — فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»².

والتدريب العسكري من مقدمات الجهاد وله نفس مقاصده، والأخ المسلم معرض للإصابة أو الشهادة أثناء التدريب، فالواجب عليه إخلاص نيته وأن يكون قصده من التدريب هو الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا حتى يحتسب له أجره كاملا إن شاء الله، فالثواب الموعود للمجاهدين معلق كل على شرط أن يكون العمل (في سبيل الله).

فلا يتدرب أو يجاهد بغرض أن يُذكر ويرى مكانه فيقال عنه إنه شجاع، ولا بغرض أن يعود إلى بلده فيقوم مقام سمعته ليقال عنه المجاهد الشجاع الذي فاق أقرانه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَيَّ وَجْهِي حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»³.

ولا يتدرب المسلم أو يجاهد بغرض التوصل إلى نفع مالي أو رئاسة وتقدم على غيره، فقد يُقتل قبل أن يحصل له شيء من ذلك فيكون قد خسرت الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا ذُتِبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»⁴. ومعناه أن الحرص على المال والشرف وهو الرياسة يفسد الدين أشد من إفساد الذئبين الجائعين لحظيرة الغنم، فما يبقى منه بعد هذا؟

1 - متفق عليه.

2 - متفق عليه.

3 - من حديث طويل رواه مسلم عن أبي هريرة.

4 - رواه أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن كعب بن مالك ؓ.

ولا يتدرب المسلم أو يجاهد بغرض نصر جماعة أو حزب خاص فإذا كان الجهاد مع غير طائفته تركه، فهذا لا يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا بل لتكون كلمة الحزب أو الجماعة هي العليا، وهذه هي العصبية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال دعوى الجاهلية؟ .. دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ»¹، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةٌ»².

قلت: وأمثال هؤلاء لا خلاق لهم في الآخرة، ومع ذلك فقد يكون لهم بلاء حسن في القتال ونصرة الدين، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُؤِيدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ»³.

ومن هؤلاء من جاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم كهذا الذي قاتل قتالا شديدا ولم يصبر على جرحه فَقَتَلَ نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»⁴. وعن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد وفلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلا إني رأيته في النار في بُرْدَةٍ غَلَّهَا — أو عباءة —»⁵. وعن عبد الله بن عمرو قال: «كَانَ عَلَيَّ ثَقَلٌ⁶ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (هُوَ فِي النَّارِ) فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا»⁷، وذكر الواقدي أن هذا الرجل كان أسود يمسك دابة الرسول صلى الله عليه وسلم في القتال، وهو في النار بسبب الغُلُول وهو السرقة من الغنيمة.

وقد كان المنافقون يخرجون للغزو ويُتَفَقِّحُونَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كهذا الذي قال في غزوة بني المصطلق {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}⁸. وكهؤلاء الذين لمزوا الصحابة في غزوة تبوك فنزل فيهم {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِنَّهٗ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}⁹. وأما نفقتهم فقد قال الله تعالى فيها: {قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِيقِينَ}¹⁰. وهم مع جهادهم

1 - رواه البخاري عن جابر بن عبد الله.

2 - رواه مسلم عن جندب بن عبد الله.

3 - رواه أحمد والطبراني عن أبي بكره ورحلتهما ثقات (مجمع الزوائد 305/5).

4 - رواه البخاري عن أبي هريرة.

5 - رواه مسلم.

6 - الثَّقَل: هو العيال وما ينقل حمله من الأمتعة.

7 - رواه البخاري.

8 - سورة المنافقون، الآية: 8.

9 - سورة التوبة، الآية: 65.

10 - سورة التوبة، الآية: 53.

وإنفاقهم { فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا }¹. وتأخذ من هذا كثيرا من العبر منها أن ساحة الجهاد قد تجمع المنافق والفاجر وفساد النية وأقواما لاخلق لهم، وكل هؤلاء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن العبر أيضاً أن وجود هؤلاء بساحة الجهاد ليس بمررٍ للعود عن الجهاد بحجة أن بالصف مجروحين فقد قام الجهاد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع وجود هؤلاء، وسيأتي مزيد بيان لهذا وفتوى ابن تيمية فيه، ومن العبر كذلك أن كون الرجل من المجاهدين والمنفقين غير كاف لتعديله خاصة إذا قامت قرائن على تجريحه، فقد رأينا أنفاً أصنافاً من المجروحين يجاهدون ويُنفقون.

وإذا كان كل هذا قد حدث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومعه، فما بالك بالحال الآن؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبِّكُمْ»². والمقصود من هذا أن يحتاط المسلم لنفسه من شر نفسه ومن فساد النية، ومن داخله شيء من فساد أو اختلاط بالنية فليبادر بتصحيحها ولا يجعل للشيطان على نفسه سبيلاً يفسد به عمله وجهاده، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ»³. وقال صلى الله عليه وسلم: «ثُمَّ يُعْتُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ»⁴. وانظر إلى حديث أنس التالي يدلُّك على تصحيح النية، حيث قال: «وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ بِمَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يَلْبَثُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»⁵. فاحرص على النية الصالحة كي تنتفع بعملك وجهادك. فإن الشريعة علقَت أحر الجهاد على صلاح نية صاحبه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَيَّ مَسْكِينَهُ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»⁶.

وقال تعالى: { قُلْ إِنْ تُخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }⁷.

وتدبر يا أخي المسلم الآية التالية لتعلم أثر صدق النية في الثبات عند قتال العدو وفي تنزيل النصر، قال الله عز وجل: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ

1 - سورة النساء، الآية: 145.

2 - رواه البخاري عن أنس.

3 - متفق عليه.

4 - متفق عليه.

5 - رواه مسلم.

6 - رواه مسلم عن أبي هريرة.

7 - سورة آل عمران، الآية: 29 - 30.

عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيًّا وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا¹. {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي من صدق النية على الوفاء بهذه البيعة، بيعة الرضوان بالحديبية وكانت على الصبر وعدم الفرار وإن قُتِلُوا، فكان ثواب صدق النية هو {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} والسكينة هي الطمأنينة في موقف الحرب، فدل ذلك على أهم أضمروا في قلوبهم أن لا يفروا فأعاهم على ذلك²، ومع السكينة {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيًّا وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً} وهو واضح. وهذه الآية دليل على أن الله يثيب صادق النية في الدنيا بإعانتته على الطاعة وغير ذلك من الثواب فضلا عن ثواب الآخرة.

ومن علامات صدق النية ألا يتغير ثباتك على الطاعة بمدح الناس لك أو بدمهم، وألا يتغير ثباتك بالمنع والعتاء، وألا يتغير ثباتك وإن تفرق عنك الساترون معك على درب الجهاد، وألا تستوحش من قلة السالكين. قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ³. فإن تأثر عزمك وثباتك بشيء من هذا، فأنت لغير الله تعالى تعمل.

ومع حسن النية يلزم المسلم في هذا المقام أن يعلم أن أي جهد يبذله في الجهاد، قل أو كثر هو عمل صالح مُثاب عليه صاحبه إن شاء الله، أدرك غاية النصر والتمكين أو لم يدركها قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁴.

والتدريب العسكري داخل في هذه الآية فهو نصب في سبيل الله وإنفاق وقطع أودية في سبيل الله وهو بلا شك موطن يغضب الكفار، ولذلك فنحن — المسلمين — نتعبد لله بالإعداد والتدريب تماما كما نتعبد له سبحانه بالقتال ذاته وبالصلاة والصيام، وهذا المعنى ينبغي أن يكون حاضرا في نفس كل أخ مسلم مقدم على التدريب طاعة وامتثالاً لقول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}.

والتدريب والجهاد من أفضل القربات إلى الله وأفضل من جميع النوافل، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رَبَابُ يَوْمٍ وَكَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ حَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنْ الْفِتَنِ⁵. وقال صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يعتزل الناس ويتعبد «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

1 - سورة الفتح، الآية: 18 - 19.

2 - فتح الباري ج 6 / ص 118.

3 - سورة آل عمران، الآية: 144.

4 - سورة التوبة، الآية: 120 - 121.

5 - رواه مسلم عن سلمان

أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ أَعْرُوفًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقٍ نَاقَةً وَحَبَّتْ لَهُ الْجَنَّةُ»¹. وعنه قال: قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول «لا تستطيعونه»، ثم قال: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى»².

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: [إن الجهاد أفضل من الحج والعمرة ومن التبعيد في المسجد الحرام الذي تعدل الصلاة فيه مائة ألف صلاة في غيره من المساجد، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: { أَجَعَلْتُمْ سِبْاقَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ }³].⁴ وقد ورد في تفسير هذه الآية وفي سبب نزولها الحديث الذي رواه مسلم عن النعمان بن بشير عندما اختلف الصحابة في أي العمل أفضل؟ فنزلت الآية فحكمت بينهما.

وقال ابن تيمية في موضع آخر: [و كذلك اتفق العلماء — فيما أعلم — على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد. فهو أفضل من الحج، وأفضل من الصوم التطوع، وأفضل من الصلاة التطوع.

والمرابطة في سبيل الله أفضل من الجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة ؓ: لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود. فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة، لِمَعَانٍ مِنْهَا أَمَّهُمْ كانوا مرابطين بالمدينة. فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو.

فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ»⁵. وفي صحيح مسلم عن سلمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَكَيْلَةُ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَفِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ» يعني منكرا وكبيرا. فهذا في الرباط فكيف الجهاد؟⁶

وقال ابن قدامة الحنبلي: [قال أبو عبد الله — أحمد بن حنبلٍ — لا أعلم شيئا من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد]⁷، قال الأثرم: قال أحمد لا نعلم شيئا من أبواب البر أفضل من السبيل، وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله وذُكِرَ له أمرُ الغزو فجعل يبكي ويقول ما من أعمال البر أفضلُ منه، وقال عنه غيره: ليس يَعْدِلُ لقاء العدو

1 - رواه الترمذي وحسنه عن أبي هريرة.

2 - متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

3 - سورة التوبة الآية 19.

4 - انظر (مجموع الفتاوى) ج 28 ص 5، وج 35 ص 160.

5 - رواه أهل السنن وصححوه.

6 - (مجموع الفتاوى) ج 28 ص 418

7 - روى هذه المسألة عن أحمد جماعة من أصحابه.

شيءٌ ومباشرة القتال بنفسه أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدو هم الذين يدفَعون عن الإسلام وعن حريمهم فأبي عمل أفضل منه؟ الناس آمنون وهم خائفون قد بذلوا مَهَجَ أنفسهم — إلى قوله — ولأن الجهادَ بذلُ المهجَةِ والمال ونفعه يعم المسلمين كلهم صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، ذكرهم وأنثاهم، وغيره لا يساويه في نفعه وخطره فلا يساويه في فضله وأجره¹.

وقال الإمام السرخسيُّ في شرحه لكتاب (السير الكبير) للإمام محمد بن حسن الشيباني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما رواه معاوية بن قرة: «في كل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد»، قال السرخسي: [ومعنى الرهبانية التفرغُ للعبادة، وترك الاشتغالِ بعملِ الدنيا، وكان ذلك في الأمم الخالية بالاعتزال عن الناس والمُقَامِ في الصوامع، فقد كانت العزلة فيهم أفضل من العِشْرَةِ، ثم نفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: «لا رهبانية في الإسلام» وبين طريق الرهبانية لهذه الأمة بالجهاد ففيه العِشْرَةُ مع الناس، والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين، وقد سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد سنام الدين، وفيه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وهو صفة هذه الأمة، وفيه تعرض لأعلى الدرجات وهو الشهادة فكان أقوى وجوه الرهبانية. أ — هـ].

ولذلك ينبغي ألا يتعلل مسلم بانشغاله في الطاعات الأخرى للعود عن التدريب والجهاد، بل هذا من تلبس الشيطان، وهي العقبة السادسة من العقبات التي يضعها الشيطان في طريق العبد كما ذكرها ابن القيم، فالعقبة الأولى محاولة إيقاعه في الكفر، والثانية في البدع، والثالثة في الكبائر، والرابعة في الصغائر، والخامسة في شغله بالمباحات عن الطاعات، قال ابن القيم: [العقبة السادسة: وهي العقبة المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسبا وربحا، لأنه لَمَّا عجز عن تحسيره أصل الثواب طمع في تحسيره كَمَاله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل وبالمرجوح عن الراجح وبالحبوب لله عن الأحب إليه وبالمرضي عن الأرضى له — إلى قوله — وفي الحديث الآخر «الجهاد ذروة سنام الأمر» — إلى قوله — ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العزم، الساترون على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه]².

فهذا إيضاح في مسألة تفاضل الأعمال وهو أصل مقرر في عقيدة أهل السنة، يدل عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»³. والإيضاح الثاني هو أنه لا ينبغي للمسلم أن يحزن إذا عجز حين التدريب والجهاد عن المواظبة على ما اعتاده من النوافل كالتلاوة والذكر والصلاة والصيام، فأجر ذلك كله يجري عليه إن

1 - المعني والشرح الكبير ج 10 ص 368 — 369.

2 - (مدارج السالكين) ج 1 ص 222 — 226

3 - رواه مسلم عن أبي هريرة

شاء الله، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»¹.

ويجب على كل من يسر الله له أمر التدريب والجهاد أن يحمد الله على هذه النعمة التي حُرِّمَ منها الأكثرون، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمًا عَبْدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»². وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فَوَاقَى نَاقَةَ وَحَبَّتْ لَهُ الْجَنَّةُ»³، إلا أن الثواب في هذه الأحاديث معلق على انتفاء المانع في حق صاحبه، فقد رأينا أنفا رجلا قاتلوا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقال عنهم إنهم في النار، وكذلك حديث الذي قاتل ليقال عنه أنه جريء، والمانع قد يكون حالاً يعرض للمسلم حال جهاده كالرياء والعجب والمن والخيانة والغلول، وقد يكون أجلاً يعرض له بعد الجهاد فيما بقي من حياته، كما ورد في حديث الصادق المصدوق عن ابن مسعود مرفوعاً «فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»⁴. وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»⁵. وقال ابن حجر في شرحه: [قال ابن بطال: في تَعْيِيبِ خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أُعْجِبَ وكسل، وإن كان هالكا ازداد عتواً، فَحُجِبَ عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء]⁶. فاحرص على ألا يعرض لك ما يضيع ثواب جهادك.

ألا ترى إلى قوم جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر عنهم إنهم في النار، وقوم صحبوه صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا بعد مماته. فهذا في سوء الخاتمة بعد عمل الصالحات. ثم انظر كذلك إلى قاتل المائة كيف تاب الله عليه وطوى له الأرض، وإلى سحرة فرعون قال ابن كثير: [فكانوا في أول النهار سَحْرَةً، فصاروا في آخره شهداء بررة]⁷، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وهذا في حسن الخاتمة بعد عمل السيئات.

1 - رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري.

2 - رواه البخاري عن عبد الرحمن بن جبير.

3 - رواه أبو داود والترمذي وحسنه عن معاذ.

4 - متفق عليه

5 - رواه البخاري عن سهل بن معاذ

6 - (فتح الباري) ج 11 ص 330

7 - ج 2 ص 238

وقد قال الله تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ }¹. قال ابن كثير في تفسيرها: [روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } هو الذي يسرق ويذني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال صلى الله عليه وسلم: «لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل». وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من طريق مالك بن مغول به نحوه قال «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم» أ — هـ]. فهؤلاء الموصوفون يخشون ألا تقبل أعمالهم لسببين:

الأول: أن (الأعمال بالخواتيم) وهم لا يدرون بم سوف يختم لهم.

الثاني: أنه وإن ختم لهم بخير فإنهم لا يدرون هل سيقبل الله عملهم أم لا؟ فإن العمل قد يكون ظاهره الخير والتمام، إلا أن هناك علة خفية تمنع قبوله عند الله كالرياء والعجب والمن والأذى وأكل الحرام، وغيرها. وإن خلص العمل من علل عدم القبول فالأمر بعد ذلك موقوف على رحمة الله تعالى للعبد، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لن ينجو أحد منكم بعمله»². وقال صلى الله عليه وسلم: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»³. وقال ابن حجر: [وأن الجنة لا يدخلها أحد بعمله بل برحمة الله — إلى قوله — وقال ابن الجوزي: يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة: الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة، الثاني: أن منافع العبد لسيدته فعله مستحق لمولاه، فمهما أنعم الله عليه من الجزاء فهو من فضله، الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله واقتسام الدرجات بالأعمال، الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير والثواب لا ينفذ، فالإنعام الذي لا ينفذ في جزاء ما ينفذ بالفضل لا بقابلية الأعمال. أ — هـ]⁴.

المقصد من هذا: أن المسلم القاصد للجهاد في سبيل الله، عليه أن يحرص أشد الحرص على ألا يفسد ثواب جهاده بأي شيء من الأعمال الظاهرة أو القلبية سواء وهو في ميدان الجهاد أو فيما يَسْتَقْبِلُ من عمره حتى يلقي الله تعالى. نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة وقبول الأعمال الصالحة.

1 - سورة المؤمنون، الآية:60

2 - رواه مسلم عن أبي هريرة

3 - رواه البخاري عن عائشة

4 - (فتح الباري) ج 11 ص 295 - 296

مسألة:

سألني أحد الإخوة، قال: إذا أخذ المجاهد عطاءً (أي معاشاً مالياً) لينفق على نفسه أو على عياله، أو إذا غزا فنال شيئاً من الغنيمة، هل ينقص ذلك من ثواب جهاده عند الله شيئاً، مع العلم بأنه ما خرج للجهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا؟

الجواب: نعم، كل نفع دنيوي يحصل للمجاهد في سبيل الله ضيماً لا قصداً ينقص من أجره عند الله. وتفضيل ذلك أن الخارج للجهاد لا تخلوا نيته عن حال من أربع:

الأولى: رجل خرج للغزو وليس قصده أن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده المال أو الرياسة أو السمعة أو غير ذلك من حظوظ الدنيا، أو التحسس على المسلمين أو ليعلوا برجل من المسلمين ليقته أثناء الحرب. فهذا في النار، لحديث أبي هريرة الذي ذكرته من قبل، وفيه: «قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنَّ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَيَّ وَجْهِي حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»¹. ومع ذلك — أي مع فساد نية هذا — قد يحدث على يديه إعلاء كلمة الله ضمناً، وهذا هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»². وفي رواية: «وَبِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ»³.

الثانية: رجل خرج للغزو وقصده إعلاء كلمة الله، وقصده أيضاً حظ نفسه من مال أو سمعة أو رياسة، فهذا لا أجر له، لما رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد جيد، قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَيْءَ لَهُ فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ».

الثالثة: رجل خرج للغزو وقصده إعلاء كلمة الله، لا قصد له غير هذا، ثم حصل له شيء من المغمم ضمناً لا قصداً، فهذا له أجر الجهاد في سبيل الله، ولكن نقص أجره بسبب ما ناله من غنيمة بخلاف الحال الرابع. وهذا الحال الثالث هو موضع السؤال، فكل نفع دنيوي يُنقصُ الأجر.

الرابعة: رجل خرج للغزو، وقصده إعلاء كلمة الله، لا قصد له غير هذا، ولم يحصل له شيء من حظوظ الدنيا، فهذا له الأجر كاملاً، وهؤلاء درجات، أدناهم من رجع من الغزو سالماً بلا غنيمة وأعلامهم من أهرق دمه وعقر فرسه وذهب ماله في سبيل الله، وبينهما المصاب والشهيد.

ودليل الحالتين الثالثة والرابعة، هو حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ إِلَّا تَعَجَّلُوا ثَلَاثِي أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ وَيَبْقَى لَهُمُ الثَّلَاثُ وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا

1 - رواه مسلم

2 - رواه البخاري

3 - رواه أحمد والطبراني عن أبي بكر

غَنِيمَةً تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»¹. وله في رواية أخرى: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَعْرُوْ فَتَعْنَمُ وَتَسَلِمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلْثِي أَجُورِهِمْ وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أَجُورُهُمْ»؛ والإخفاق هو أن يغزو فلا يغنموا شيئا. فهذا نص واضح صريح في أن من غزا ونبته سالحة (في سبيل الله) إن رجع بشيء من الغنيمة نقص ذلك ثلثي أجره الأخرى (وهي الحالة الثالثة التي ذكرتها، وهي موضع السؤال وإن لم يرجع بشيء تم له أجره في الآخرة (وهي الحالة الرابعة).

وقد أورد البخاري رحمه الله هذه المسألة في كتاب فرض الخمس من صحيحه في باب (من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره؟) هكذا معلقا الحكم ولم يجزم فيه بشيء. وأورد فيه حديث أبي موسى الأشعري «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا». وفصل ابن حجر الأحوال المختلفة ولم يجزم في الحكم²، بخلاف النووي الذي جزم في الحكم في هذه المسألة فقال في شرح حديث عبد الله بن عمر السابق «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَعْرُوْ...» قال النووي: [فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم، أو سلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر، وهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة، كقوله «مِثْلًا مِنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، وَمِنَّا مَنْ أَيْبَعَتْ لَهُ ثَمْرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِيهَا» أي يَجْتَنِبُهَا فهذا الذي ذكرنا هو الصواب وهو ظاهر الحديث ولم يأت حديث صريح صحيح يخالف هذا فتعين حمل على ما ذكرنا وقد اختار القاضي عياض معنى هذا الذي ذكرناه بعد حكايته في تفسيره أقوالا منها قول من زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح ولا يجوز أن ينقص ثواب أهل بدر، وهم أفضل المجاهدين وهي أفضل الغنيمة، قال وزعم بعض هؤلاء أن أبا هانئ حميد بن هانئ رَأَوِيَةً مجهول ورجَّحوا الحديث السابق في أن المجاهد يرجع بما نال من أجر وغنيمة فرجَّحوه على هذا الحديث لشهرته وشهرة رجاله ولأنه في الصحيحين وهذا في مسلم خاصة، وهذا القول باطل من أوجه فإنه لا تعارض بينه وبين الحديث المذكور، فإن الذي في الحديث السابق رجوعه بما نال من أجر وغنيمة ولم يقل أن الغنيمة تنقص الأجر أم لا، ولا قال أجره كأجر من لم يغنم فهو مطلق وهذا مقيد فوجب حمله عليه. وأما قولهم أبو هانئ مجهول فغلط فاحش بل هو ثقة مشهور روى عنه الليث بن سعد وحيوة وابن وهب وخلائق من الأئمة ويكفي في توثيقه احتجاج مسلم به في صحيحه. وأما قولهم إنه ليس في الصحيحين فليس لازما في صحة الحديث كونه في الصحيحين وليس في أحدهما. وأما قولهم في غنيمة بدر، فليس في غنيمة بدر نص أنهم لو لم يغنموا لكان أجرهم على قدر أجرهم وقد غنموا فقط، وكوهم مغفورا لهم مرضيا عنهم ومن أهل اللجنة لا يلزم أن لا تكون وراء هذا مرتبة أخرى هي أفضل منه مع أنه شديد الفضل عظيم القدر. من الأقوال الباطلة ما حكاها القاضي عن بعضهم أنه قال لعل تعجل ثلثي أجره إنما هو في غنيمة أخذت على غير وجهها وهذا غلط فاحش إذ لو كانت على خلاف

1 - رواه مسلم

2 - فتح الباري ج 6 ص 28، 29، 226

وجهها لم يكن ثلث الأجر. وزعم بعضهم أن المراد أن التي أخفقت يكون لها الأجر بالأسف على ما فاتها من الغنيمة فيضاعف ثوابها كما يضاعف لمن أصيب في ماله وأهله وهذا القول فاسد مباين لصريح الحديث. وزعم بعضهم أن الحديث محمول على من خرج بِنِيَّةِ الغزو والغنيمة معاً فنقص ثوابه وهذا أيضاً ضعيف. والصواب ما قدمناه والله أعلم.¹

قلت: وقد ورد في كتاب (نيل الأوطار)² باب مستقل لبحث هذه المسألة، وهو باب (ما جاء في إخلاص النية في الجهاد وأخذ الأجرة عليه والإعانة) حيث ذكر مجموع الأدلة السابقة وما ذكره ابن حجر، ولم يجزم في المسألة بخلاف النووي.

وهذا ما تيسر من الكتابة عن الإخلاص والاحتساب، عسى الله أن ينفعنا به والقارئ الكريم. آمين.

1 - (صحيح مسلم بشرح النووي) ج 13 ص 52 - 53

2 - للشوكاني ج 8 ص 32 وما بعدها